بعض الإشارات القرآنية والعلمية في خلق الإنسان التي تؤهله لأمانة التكليف

د. حامد أحمد عبداللطيف*

* أستاذ مساعد، كلية التربية، جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم - السودان.

مستخلص البحث

تناول هذا البحث الإنسان الموسوم ببعض الإشارات القرآنية والعلمية في خلق الإنسان التي تؤهله لأمانة التكليف في القرآن الكريم، حيث أوضح الباحث أن الإنسان كرمه الله بنعمة العقل وحمَّله أمانة التكليف، وصوره وأحسن خلقه، وأنه خلق في أحسن تقويم، وجعله خليفة الله في الأرض،ليقوم بهذه الخلافة حسب أوامر الله ونواهيه، وهذا الإنسان ذو طبيعة مزدوجة روحية ومادية، كلاهما يحتاج للرعاية والتغذية، حتى يعيش الإنسان في هدوء وسكون نفسي وجسدي.اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي في تناوله للبحث، وتوصل لنتائج أهمها: العقل هو هبة الله للإنسان يوظفه في خلق منظومات اجتماعية وأخلاقية تعينه في تعامله مع غيره من بني جنسه وغيره من الكائنات الأخرى، وأن استنتاجات العلماء فيما يخص خلق الإنسان لا تعتبر مسلمات يؤخذ بها وإنما خطوات في الطريق السليم يمكن أن تثبت أو تكذب وتحتاج لدليل وبرهان.

Abstract

This research dealt with some Quranic and scientific references in the creation of man that qualifies him for the commissioning trust in the Holy Quran, the researcher explained that man was honored by Allah by the grace of the mind. The researcher followed the descriptive and analytical approach in dealing with the research reached the most important results: Mind is Allah>s gift to man to employ in creating social and ethical systems. and dealing with others and that the conclusions of the scientists with regard to the creation of man is not considered Postulates taken but steps in the right way can prove or lie and need proof and proof.

المقدمة

البحث الموسوم ببعض الإشارات القرآنية والعلمية في خلق الإنسان التي تؤهله لأمانة التكليف يتناول خلق الإنسان الذي ميزه الله على سائر المخلوقات بأمانة التكليف، وفضله على جميع مخلوقاته بالعقل المفكر والمميز بين الخير والشر، وحمله مسؤولية الاستخلاف في الأرض، كما يتناول البحث نتائج الانحراف عن منهج الله ومخالفة أوامره، اتبع الباحث المنهج التحليلي الوصفي، والاستعانة بالمنهجين الاستدلالي والاستقرائي للوصول لنتائج البحث، ومن أهم نتائج البحث: على الرغم من التطور العلمي الذي شهده عصرنا الحاضر لم يصل الإنسان لمعرفة سر وبداية الخلق، وهو ما زال يسعي للوصول لهذا السر المحير.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. ما مكان الإنسان بين الكائنات التي خلقها الله؟
2. ما طبيعة الإنسان التي فطر عليها؟
3. ما المميزات البيولوجية التي يتفوق بها الإنسان على سائر الكائنات الحية؟
4. ما هو الإعجاز الرباني في وصفه لتطور خلق الإنسان؟
5. ما الإشارات العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم في دورة حياة الإنسان؟
6. كيف دحض العلم الحديث نظريات النشوء والارتقاء والتطور؟

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث في توضيح نتائج الانحراف عن منهج الله وما هي عاقبة ذلك؟ كما تكمن أهميته أيضاً في السبق القرآني لبعض المعجزات العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم وأثبتها العلم الحديث.

منهجية البحث:

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي بالإضافة للمنهجين الاستقرائي والاستدلالي.

هيكل البحث:

يتكون البحث من الآتي:

1. المقدمة.
2. المبحث الأول: خلق الإنسان ومميزاته.
3. المبحث الثاني: طبيعة الإنسان.
4. المبحث الثالث:: خلق الإنسان في أحسن تقويم.
5. الخاتمة: وتشمل النتائج والتوصيات، وقائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

خلق الإنسان ومميزاته

1-1 موقع الإنسان في القرآن الكريم:

أهتم القرآن الكريم بالإنسان اهتماماً كبيراً إذ أن الله سبحانه وتعالى هيأه وحباه بكثير من القدرات والملكات لكي يقوم بوظيفة محددة وهى الاستخلاف في الأرض، وهذا التفضيل ثابت بنص القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: 70].

والناظر المتفحص والدارس لمراحل نمو الإنسان وتطوره منذ لحظة إخصاب الحيوان المنوي لبويضة المرأة ومراحل تطوره ونموه بعد الولادة والفترة الطويلة التي يمر بها الإنسان حتى يصل إلى مرحلة البلوغ يستنتج إن هذا الأعداد الطويل ومرحلة التعلم الطويلة التي يمر بها الإنسان إنما هي إعداد لهذا الإنسان لكي يقوم بالمهمة العظيمة التي من اجلها خُلق، وهى الأمانة التي ألقاها الله على عاتقه حيث يقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب: 72].

وهذه الأمانة، أمانة التكليف تتطلب مخلوقاً ذو مواصفات محددة، مهيأ بوسائل وأدوات معينة تعينه على حمل هذه الأمانة وتأديتها على الوجه الذي يرضاه المستخلف من خليفته.

زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بالعقل المفكر المبدع المتأمل القادر على التحليل والتركيب والتقييم وحباه بوسائل اتصال تعينه على التفاعل مع الوسط المحيط والتكيف معه وهذه الوسائل هي منافذ العقل على الوسط لمده بالمعلومات ،يقوم العقل بتحليلها وربطها مع بعضها البعض ويستنتج من تقيمه لها قوانين وقواعد ومعلومات تعينه على البقاء وإعمار الأرض. هذه الوسائل هي حواس الإنسان من سمع وبصر وشم وذوق ولمس بالإضافة إلى بصيرة الإنسان وتخيله الناتجة من

استنتاجاته وتأملاته المختلفة، والعقل هو هبة الله للإنسان ليقوم بمهمة الخلافة في الأرض. يعمرها ويسعى فيها لتحقيق الخير وبه يفكر ويتدبر مخلوقاته كافة فيتأمل بديع صنعه، والله سبحانه وتعالى وضع في هذا العقل ملكات عن طريقها يمكن أن يكتشف قوانين ونواميس هذا الكون، وعن طريق هذه القوة الجبارة استطاع الإنسان أن يسود الأرض ويعمر اغلب مواطنها وبيئاتها.

2-1 المميزات البيولوجية للإنسان التي تميزه عن غيره من المخلوقات:

إذا تمعنا ودرسنا جسم الإنسان نجد أنه يتميز عن بقية المخلوقات بعدة أشياء نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

حسن الخلق:

يقول المولى عز وجل في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]. فجسم الإنسان يتميز بالتناسق وجمال المنظر وملائمة أعضاء الإنسان وأجهزته للقيام بالوظائف المنوط بها على أكمل الوجوه ويتمثل حسن الخلق هذا في الآتي:

أولاً: **انتصاب القامة:**

فهو يمشي على رجلين، يدعم هذه القامة مجموعة من العظام والتي تتآزر وتتعاون لتؤدى وظائف مختلفة، فنجد أن أطراف الإنسان الأمامية متحورة ومتكيفة لتؤدي وظائف القبض والمسك والتناول والعمل والكتابة بصورة لا يوجد لها مثيل في بقية الكائنات الأخرى.

"يوجد في جسم الإنسان 216 عظمة تكون في مجموعها الهيكل العظمي، مزود بمفاصل تساعده على الحركة بحرية كبيرة تسمح للإنسان بالوقوف مستقيماً والجلوس والاضطجاع والانحناء والمشي والبسط والقبض وغير ذلك من الحركات"[1].

(1) زغلول النجار – تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم – مكتب الشروق الدولية – 1431هـ 2000-م – ص 533.

ثانياً: **كبر حجم دماغ الإنسان:**

عند مقارنته ببقية الكائنات الحية الأخرى – يتراوح حجم مخ الإنسان بين 1200-2000 مليمتر مكعب بمتوسط 1500 ملميتر مكعب " وله جهاز عصبي بالغ التعقيد، يتميز بالذكاء وله القدرة على التفكير والتحليل والتعلم، وله القدرة على التعبير عن انفعالاته وإحساسه ومخ الإنسان حديث الولادة يزن اقل من نصف كيلو جرام وعندما يصل إلى سن ست سنوات يصبح وزنه 1.4 كيلوجرام وهى أقصى ما يصل إليه في الوزن يتكون من مليار خلية عصبية[1].

بقية الحيوانات الأخرى لا تتمتع بهذا التركيب في مخها، وما يميز مخ الإنسان كذلك كثرت التلافيف والتعرجات التي توجد على سطحه مما يزيد من مساحة سطحه، وزيادة مساحة السطح تعطى الإنسان مقدرات تفكيرية أكبر، اللافقاريات ليس لها مخ متطور وإنما لها عقد عصبية تعمل على تنظيم وتآزر أنشطة الجسم المختلفة. وهى تنظم المعلومات التي تستقبلها من البيئة الخارجية بواسطة أعضاء الحس. الفقاريات الأخرى من اسماك وبرمائيات وزواحف وطيور والثديات غير الإنسان لها مخ أقل وزناً وحجماً لا يتميز بكثرة التعرجات والتلافيف التي توجد على سطحه، الإنسان حاله حال الرئيسيات العليا كائن اجتماعي يعيش في مجموعات لكن بما وهبه الله من عقل استطاع أن يوظف عقله في خلق منظومات اجتماعية ويضع قيماً أخلاقية لتعامله مع غيره من بني جنسه وحتى في تعامله مع الكائنات الأخرى التي تشاركه الحياة على الكرة الأرضية.

ثالثاً: **تناسق تفاصيل الرأس والوجه:**

عظام الرأس في الإنسان مرتبة ومتناسقة بصورة بديعة أكسبت الرأس والوجه جمالاً بديعاً، الرأس مرتفع، ووضع الفم ليس طرفياً، وجود الحواجب فوق العين يزيده جمالا ووضع الأنف المميز، الأسنان المرتبة ترتيباً بديعاً فتبارك الذي أحسن فخلق فسوى.

(1) المرجع السابق – ص535.

كما يتميز الإنسان أيضا بالمقدرة على الكلام والتعبير عن نفسه حيث يقول المولى عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ القُرْءَانَ • خَلَقَ الإِنْسَانَ • عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: 1 - 4]، حيث تلقى الإنسان اللغة الأولى من الله سبحانه وتعالى وان أول من تكلم باللغات كلها من البشر هو آدم عليه السلام والقرآن يشهد على ذلك حيث أن المولى عز وجل علمه الأسماء كلها. بل إن الإنسان باستخدام عقله استطاع أن يبتدع الكتابة ويسجل اللغة التي يتكلم بها ويحفظها من الضياع ويطورها ويحفظ بها حضارته وهى ميزة لا توجد عند غيره من الكائنات الأخرى.

كما يتميز الإنسان بالقدرة على التفكير والاستيعاب والتحليل والتركيب والتخيل والتقويم والانفعال والتعلم والقدرة على تكييف البيئة التي يعيش فيها ليجعلها تتلائم مع مقدراته وتحمله فهو عكس الكائنات الأخرى التي تكييف نفسها للعيش في بيئة ما...

كما يتميز الإنسان بحسه وشعوره الفني والجمالي الذي يتذوق به ما يشاهده من كتاب الله المشاهد ومخلوقاته الحية ويستطيع أن يعبر عن شعوره بالرضاء والفرح أو البكاء والحزن، وقد يعبر عن شعوره هذا بالشعر والفن والكتابة وينشئ قيماً فنية وجمالية ويتواصل مع غيره من المجتمعات حيث تتلاقح ثقافته مع ثقافاتها بصورة لا توجد في مجتمعات الكائنات الحية الأخرى.

المبحث الثاني

طبيعة الإنسان

1-2 الطبيعة المزدوجة للإنسان:

الإنسان ذو طبيعة مزدوجة طبيعة مادية وأخرى روحية وهذه الازدواجية ثابتة بنص القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجل: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ • فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [سورة ص: 71-72]، فالأصلُ المادي للإنسان أن جسمه يتكون من نفس العناصر التي توجد في التراب.

الطين هو التراب المختلط بالماء، وهذا التراب ناتج من تفتت الصخور بفعل عوامل التعرية المختلفة، " والتحليل الكيميائي لجسم الإنسان أوضح أنَّه يتكون من الآتي:

" 65% أكسجين، كربون 18% هيدروجين10% نتروجين 3% كالسيوم 1.4% فسفور 7%، وبعض العناصر النادرة مثل اليود، الفلور، البروم، البروميد، الحديد، النحاس، المنجنيز، الزنك، الكروم، الكوبالت، النيكل، المغنيسيوم، القصدير، الفانيوبوم، السيلكون والألمونيوم[1].

وهذه العناصر نفسها توجد في التربة، ولا يقف أصل الإنسان واعتماده على التراب على الخلقة الأولى فقط، بل أن كل ما يتغذى الإنسان بعد خلقته الأولى مستمد من هذه الأرض، فالنباتات تستمد عناصرها الأولية لصنع الغذاء من التربة، وعلى النباتات تعتمد بقية الكائنات الحية الأخرى بصورة مباشرة وغير مباشرة وعند موت الإنسان فانه يتحلل بفعل المحللات من بكتيريا وفطريات ويعود إلى أصله الذي خلق، وهذا الشاهد الإحيائي يثبته القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: 55][2].

متى تحدث هذه الإعادة ؟ تحدث بعد خروج السر الإلهي من الجسد الترابي فهذا الجسد الترابي هو وعاء لروح الله التي نفخها منه، وجسم الإنسان لا يعتريه

(1) زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم – الجزء الثاني، ص 200.
(2) زغلول النجار: تفسير الايات الكونية فى القرآن الكريم، الجزء الثانى، ص 200.

هذا التحلل إلى عناصره الأولية طال ما بقيت الروح فيه، وبمجرد خروجها منه يصبح الجسد فريسة سهلة للمحللات، فالإنسان على قيد الحياة يزود جسده المادي بالعناصر الترابية عن طريق التغذية المستمرة أليس للمكون الأخر ما يغذيه ؟ إلا يحتاج الجانب الروحي إلى ما يسكنه وهذه التغذية الروحية لا يجدها الإنسان إلا في الوحي الإلهي، فإن هي " الروح" آمنت وأيقنت بوجود خالقها وانتظمت في عبادته وطاعته سكنت واطمأنت وان هي سلكت الجانب المادي فقط وسقطت في شهواته انتابته الحيرة والقلق وعدم سكون النفس فلا يحس بالسعادة التي ظل يبحث عنها في شق واحد مهملاً الجانب الأخر المكمل لخلق الإنسان.

منهج القرآن الكريم يدعونا إلى التأمل والتدبر في خلق الإنسان وخلق جميع الكائنات الحية الأخرى، علَ ذلك يقود الإنسان إلى الإيمان اليقيني بالله عز وجل، كل الآيات التي تدعو إلى التفكر في خلق الله هدفها إثارة تفكير الإنسان للتدبر والتفكر في بديع الصنع والخلقة التي فطر الله سبحانه وتعالى عليها هذه الكائنات الحية. يقول المولى عز وجل:﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١]. ويقول أيضاً: ﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧]. ويطلب المولى عز وجل من الإنسان التدبر والتمعن في خلق الإنسان حيث يقول: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ • خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ • يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾[الطارق: ٥-٧]ويقولَ أيضاً ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ • أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]. دعوة للنظر والملاحظة والتجريب واستخدام العقل والحس وكل أدوات الإنسان للمعرفة للتدبر في خلق الإنسان وبقية الكائنات الحية الأخرى. هل هذه الدعوة للتعلم والبحث هدفها إشباع حاجات الإنسان الدنيوية فقط ؟ كلا، بل لها أهداف سامية تتعلق بالدعوة إلى الإيمان والرجوع إلى الفطرة السليمة التي فطر الله عليها الخلق حيث يقول المولى عز وجل: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذا العهد أخذه الله سبحانه وتعالى من ذرية آدم جميعها، وهى فطرة الله التي فطر عليها الإنسان، الإيمان بالله فطرة في نفس كل ذرية ادم، لكن هذه الفطرة يحجبها الهوى والتربية غير السليمة والشياطين ووساوسهم من الإنس والجن.

2-2 خلق الإنسان وتطوره في القران الكريم:

يبدأ خلق الإنسان منذ اندماج خليتين تناسليتين هما الحيوان المنوي والبيضة وهما يمثلان نطفتي الرجل والمرأة، كل من الخليتين بها نصف كمية المادة الوراثية الموجودة في الخلايا الجسدية، باندماج هاتين الخليتين.تتكون اللاقحة اوالزايجوت التي تمر بمرحلة انقسامات متتالية حتى يكون الجنين الكامل الذي يتكون من ملايين الخلايا[1]. تطور خلق الإنسان صورة القرآن الكريم في أبدع صورة في آيات مختلفة حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ • أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]. وفى هاتين الآيتين إشارة للأمشاج التي يتكون منها الإنسان.

رحلة تكون الإنسان هذه تستغرق حوالي 37 أسبوعا قد تزيد أو تنقص قليلاً، حيث تبدأ هذه الرحلة من التقاء الحيوان المنوي بالبيضة في الجزء الأعلى من قناة فالوب[2].

يستغرق نمو الإنسان 266يوماً منذ الإخصاب و280 يوماً من آخر دورة حيض تنقسم اللاقحة انقسامات متتالية بعملية انقسام تسمى الانقسام الفتيلي أو الميتوزي " الاستنساخ " في شكل متوالية هندسية 1،2،4،8،16...الخ. وتكون مجموعة خلايا تسمى التوته أو كرة الخلايا وتصل إلى الرحم بعد ثلاثة أيام، حيث يظهر سائل داخل الخلايا حيث يفصل الخلايا إلى مجموعتين داخلية وأخرى خارجية وهما أصلا المضغة والمشيمة، الخلايا الداخلية تتكون منها أعضاء الجنين المختلفة أما بقية الخلايا المحيطة بالتوتة فتكون الأرومة المغذية التي تكون أغشية الجنين فيما بعد[3].

(1) علم الأحياء: (2010م) الطبعة الأولى - وزارة التربية والتعليم –ص 115.
(2) المرجع السابق – ص 115.
(3) هناء نزار انشاصي: (2007م) – 1428هـ - الاستنساخ بين الحقيقة والخيال – دار الفكر – ص 46.

تتحول التويتة إلى كيس يشبه الكرة تسمى كيس الجرثومة أو البلاستولة وبلغة القرآن تسمى " العلقة " حيث تنقرس هذه العلقة في جدار الرحم، ويعتبر الانقراس في جدار الرحم آخر طور من أطوار النطفة – حيث تفرز أنزيمات تذيب جدار الرحم الداخلي وترتبط هذه الكره ببطانة الرحم وتندمل فيه. تتحول العلقة إلى كتلة من اللحم غير المنتظم تشبه قطعة اللحم المضوغة " انظر الشكل المرفق " فخلقنا العلقة مضغة)[1].

ثم يبدأ الجنين في التحول من كتلة لحم لا معالم لها إلى كائن له رأس وأطراف ورقبة أي مضغة غير مخلقة إلى مضغة مخلقة وتبدأ معالم الوجه في الظهور وتتكون بقية الأعضاء تباعاً، بعد ذلك تتكون العظام حيث تظهر عظام القفص الصدري وعظام العمود الفقري ويكتمل نمو العظام وتكسى بالعضلات ﴿**ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا**

(1) علم الأحياء – مرجع سابق – ص 117.

آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي هذه المرحلة تتمايز أعضاء الجنين إلى كائن يشبه الإنسان ﴿أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وبعد ذلك يودع فيه سر الحياة أو الروح حيث يقول المولى عز وجل ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 9].

وحقيقة نفخ الروح بعد طور المضغة أثبتها الرسول الكريم في أحاديث منها ما رواه الإمام مسلم في صحيحة عن عبدا لله بن مسعود رضي الله عنه قال " حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطقة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح"[1].وهذا التصوير البديع مصور في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ • ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

المراحل المذكورة في القرآن لم يعترض عليها علم الأحياء وإنما جاءت تجارب علماء الأحياء وملاحظاتهم مؤيدة ومدعمة للنص القرآني – الأسلوب المتبع في الرصد سهل وبليغ يحث الإنسان على الملاحظة والتجريب والاستقراء والاستنباط، لكن الاكتشاف للحقائق العلمية عادة لا يكون إلا للعقل المهيأ، فقد تحدث أشياء ويلاحظها أناس كثر لكن العقل المتسائل والمستنبط والمعلل لا يوجد إلا عند ذوي العقول المهيأة، أناس كثر قبل اسحق نيوتن لاحظوا سقوط التفاح على الأرض، لكن عقل نيوتن المهيأ هو الذي استنتج قوانين الجاذبية. وهنالك حقائق علمية أثبتها القرآن الكريم لم يُستدل عليها إلا مؤخراً بعد تقدم علم الحياة ومن ذلك:

تتكون الغدد التناسلية في الرجل " الخصيتان" والمبايض في المرأة، فلقد اتضح أن هذه الغدد تتكون فيما يعرف بالحدبة التناسلية التي تقع بين صلب الجنين

(1) زغلول النجار: مرجع سابق، الجزء الرابع، ص 264.

" أي الفقاريات الظهرية، وترائبة أي عظام صدره وضلوعه وتنزل الخصيتان تدريجياً حتى تصل إلى خارج الجسم وهو كيس الصفن، في أواخر الشهر السابع من الحمل.وتنزل المبايض إلى حوض المرأة في الفترة نفسه[1] حيث يقول المولى عز وجل: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ • خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ • يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾ [الطارق: ٥-٧]. دعوة للنظر والملاحظة والتجريب والتمعن والتدبر في خلق الإنسان، فبداية الآيات " فلينظر" أنها المنهجية العلمية القرآنية التي دائماً تخاطب العقل وتحسه على استخدام كافة وسائل المعرفة الإحساس، والتجريب، الملاحظة وربط نتائج كل ذلك عن طريق العقل الذي ميز به الله سبحانه وتعالى الإنسان عن بقية المخلوقات، وصياغة نتائج تجاربه في شكل قوانين ونظريات، دائماً يحث القرآن الكريم وينبهه على التساؤل، "الم ترى" " فلينظر" " انظروا" ويحث الغريزة التي أودعها الله في ألإنسان وهى غريزة حب الاستطلاع وإشباع الفضول الذي تميز به الإنسان على بقية المخلوقات.

ومن الحكم العجيبة وجود الخصيتين في الثدييات خارج الجسم مقارنة ببقية الكائنات الأخرى التي توجد الخصي فيها داخل الجسم،ولقد أثبت العلم الحديث أن الحيوانات المنوية لا تتكون عند درجة حرارة الجسم بل تحتاج إلى درجة حرارة أقل.بل تعال أيها الإنسان وتفكر كيف زود الله سبحانه الخصى بغدد عرقية ترطب هذه الغدد وتعمل على تخفيض درجة حرارتها، كما زودها بآلية الانكماش في البرودة حتى تقترب من الجسم والارتخاء في الجوء الحار حتى تبتعد عن الجسم الدافئ – إلا يدل كل ذلك أن وراء هذا التصميم البديع صانع ماهر ومبدع قادر وكيف يمكن لذلك أن يأتى بمحض الصدفة – سبحان الله عما يصفون.

(1) المرجع السابق، ص 273.

2-3 التغير من سنن الله في مخلوقاته:

التغير سنة من سنن الله في مخلوقاته والفناء غاية كل مخلوق في هذا الكون ويتأكد ذلك في دورة حياة الكائنات الحية والتي تبدأ حياتها ضعيفة ثم تنمو ويشتد عودها وتبلغ أشدها، ثم يلي ذلك انحدار وتدهور في جميع خلايا وأعضاء وأجهزة الجسم ثم تضعف – دورة الحياة هذه أشار إليها القرآن الكريم وتناولها في صورة دقيقة ومعجزة خاصة تلك التي يمر بها الإنسان.

دورة حياة الكائن الحي تعرف بأنها مختلف العمليات والإحداث المتتالية بدءاً من اتحاد الجاميطات[1] لتكوين الزايجوت في جيل ما وحتى الوصول إلى الفرد الكامل في الجيل الثاني.صورها القرآن الكريم في الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وهذا التدرج في نمو الكائنات الحية وتدرجها حتى تصل إلى سن البلوغ حيث يشتد عودها وتتزاوج لإنتاج أجيال جديدة تحفظ النوع من الانقراض ثم تتدهور هذه الكائنات وتموت. لا يستثنى من هذه السنة الربانية كائن – وهذا التغير في دورة الحياة يكون واضحاً في نمو الإنسان وتدرجه من الضعف إلى القوة إلى الأشد ثم الضعف والتدهور والموت، كيف عرض القرآن الكريم هذه التغيرات في منهجيته وما هو الهدف من عرضها بهذه الصورة ؟ الهدف الأساس من هذه الإشارات هو تنبيه الإنسان إلى قدرة الله وعظمته ولفت انتباهه إلى انه هو منشئ هذا الكون وخالقه ومدبره وحثه على التدبر والتفكر في مخلوقاته وخلق نفسه على ذلك يقوده إلى إيقاظ فطرته السليمة.

2-4 الشيخوخة والموت:

نبه الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى التدبر في تطور خلقه وانه خلق ضعيفاً حيث تكون عظامه طريه قابلة للكسر والتشوه أذا لم تعامل بحرص شديد، عضلاته ضعيفة وحواسه غير مكتملة النضج، ثم يبدأ في النضج تدريجياً حتى يصل

(1) علم الأحياء: (2010م) – الطبعة الاولي – مطابع احمد صالح لمدخلات الثقافة والسماعة- وزارة التربية والتعليم – ص 38.

إلى أقصى مراحل نضجه عند سن الأربعين، حيث يتوقف النمو الجسدي وتأخذ القدرات البدنية في التناقص التدريجي حتى سن الخامسة والستين، ثم التناقص الحاد بعد ذلك إلى نهاية العمر، وتسمى هذه الفترة بالشيخوخة[1].

وهى حالة من التدهور التدريجي في بنية كل حي يشمل جميع خلاياه وأنسجته وأعضائه وأجهزته، مما يضعف من كفاءتها ومن قدرتها على القيام بوظائفها بالمعدلات التي كانت تقوم بها من قبل.هذا التدهور الصحي هو نوع من التدمير الذاتي المبرمج في الشفرة الوراثية للخلية الحية، فيبدأ الخلل في التراكم على مستوى الخلايا لينعكس على مستوى الأنسجة والأعضاء والأنظمة، ويبدأ في الظهور في أشكال متعددة من التغير في تركيب الأحماض النووية التي تكتب بها الشفرة الوراثية الى شيب الرأس وتجاعيد الجلد وضعف الحواس[2].

وأعراض الشيخوخة لا يمكن إيقافها ولا التخلص منها وذلك ناتج من ضعف الخلايا وقدرتها على التجديد والانقسام كلما تقادم بها العمر.

وتعرف الشيخوخة بأنها تدهور مستمر بمرور الوقت لتراكيب ووظائف كائن بالغ يؤدى هذا بالتالي إلى موت الكائن[3].

لقد نجح أنسأن هذا العصر في اكتشاف ألاف العقاقير لعلاج كثير من الإمراض لكنه عجز وفشل في إيقاف هذا التدهور لنمو الخلايا الذي يحدث لها مع تقدم العمر والسن، كل الخلايا في أغلب الكائنات الحية تكبر وتشيخ إلا النادر منها مثل خلايا البكتيريا. في البكتيريا لا توجد شيخوخة لأن الخلية البكتيرية إذا كبرت تنقسم إلى خليتين، على الرغم من أن التغيرات في البيئة تقتل الخلايا البكتيرية، لكن لا يعرف موت للبكتيريا بسبب الشيخوخة مما حدا بالعلماء بأن يصفوا البكتيريا بأنها خالدة. وقد اعتقد بعض العلماء أنه إذا أخذت خلايا أو أنسجة حية حيوانية وتمت زراعتها في المعمل يمكن أن تنتقل إليها صفة الخلود كما هو الحال في البكتيريا. فقد وجد أن هذا الخلايا تتكاثر لكن تكاثرها لا يكون عادياً

(1) كيمبل بايولوجى (1413هـ 1993-م) – تعريف شاكر محمد حماد – وعادل ابراهيم الخراز – دار النشر الرياض – ص 659.
(2) زغلول النجار –(2010م) – تفسير الآيات القرآنية فى القرآن الكريم – ط 2 – دار الشروق الدولية – ص 274.
(3) كيمبل بايولوجى – مرجع سابق – ص659.

ويكون بها عدد من التشوهات. كما يكمن تربية خلايا الثدييات لكنها لا تمر في أكثر من خمسين انقساماً قبل أن تتدهور وتموت. وهنالك كائنات يمكن أن تجدد خلاياها وتنمو إلى أعمار أطول كالنباتات حيث تكون أزهار وأوراق وأنسجة لا تبدو عليها مظاهر الشيخوخة، لكن معدل نمو النبات يقل مع التقدم العمر.

لقد وصفت عدة نظريات تحاول أن تفسر وتجد أسبابا للشيخوخة لكن هذه النظريات ينقصها التدعيم التجريبي الذي يؤكدها .بعضها يعتقد أن سرعة نمو الكائن الحي له ارتباط بسرعة وصوله إلى الشيخوخة، حيث وجد أن فأر المعمل الذي يصل للبلوغ بعد عدة أسابيع من ولادته يشيخ بسرعة أكبر من الثدييات التي تستغرق سنوات لتصل إلى البلوغ مثل الإنسان. وهنالك من يقول بأن الشيخوخة تنتج لتجمع مواد سامه مع تقدم العمر يصعب على الخلية التخلص منها وآخرون يقولون بان DNA عندما يشيخ ينتج بروتينات وإنزيمات منحرفة[1]، نخلص من ذلك كله إلى أن السبب الحقيقي للشيخوخة غير معروف، وهذه الحقيقة نبه إليها القرآن الكريم وأن كل نفس ذائقة الموت حيث يقول المولى عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويقول عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، ويقول عز وجل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

ويقول أيضاً ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، أي لا يفكرون ويستخدمون عقولهم في ابتداء الخلق ثم تدرجهم إلى الشيب والشيخوخة. وهذا خطاب قراني في هذه المنهجية المتفردة ودعوة إلى استخدام النظر والتدبر في خلق الإنسان. واستخدم المنهج العلمي في الوصول إلى الحقيقة وذلك باستخدام مخلوقات الله وقد كان رسول الله صلى اله عليه وسلم يتمثل هذا البيت من الشعر

(1) كيمبل بايولوجى – مرجع سابق.

" كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً[1].

يصاحب عملية الشيخوخة العديد من المظاهر مثل الضعف العضلي وضعف القلب والجهاز الدوري حيث تقل كفاءة القلب تدريجياً في ضخ الدم وتقل سرعة نبضاته وتزداد نسبة الإصابة بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم مما يتسبب في حدوث جلطات دمويه قاتله. وينكمش الجلد ويتجعد بسبب قلة نشاط الغدد العرقية والدهنيه ويتغطى بالبقع الداكنة وتضعف مناعة الجسم فيصاب بالفطريات والالتهابات والحساسية الشديدة لأشعة الشمس، وتضعف العظام وتصبح هشة سهلة الكسر ومن اخطر هذه الإعراض هو عجز جهاز المناعة عن تمييز خلايا الجسم السليمة من الأجسام الغريبة الغازية لها فيبدأ بمهاجمة الجسد الذي صمم أصلا للدفاع عنه ويصاب بسلسلة من الأمراض ألمعروفة باسم أمراض فقد التميز المناعي[2].

لقد صور القران الكريم هذا التدهور التدريجي بدقة علميه بالغة وترتيب منطقي سليم الأمر الذي يشهد لهذا الكتاب بالربانية ويشهد لرسولنا الكريم بالنبوة والرسالة.كل الناس على اختلاف أجناسهم ودياناتهم يقرون ويعترفون بان لهم أجل أذا جاء لا يؤخر وأن مصيرهم إلى الموت ما هو الموت وما هي حقيقته؟ وكيف عبر القرآن الكريم عنه في تناوله ؟

الموت ناتج من نواتج الشيخوخة لكنها ليست سبباً رئيساً له، فكلما أصبحت أجهزة الجسم أقل كفاءة يصبح الجسم غير قادر على تحمل ضغط الحياة، وتتعدد أسباب الموت، لكنها حقيقة يؤمن بها الكل فقد يكون الموت بسبب تعطل أحد الأعضاء كالقلب أو الدماغ أو الكبر أو توقف الكلى عن ترشيح الفضلات في الجسم أو بسبب غزو الطفيليات للجسم فالخلايا العصبية هي أولى الخلايا التي تموت بسبب نقص الأكسجين وخلايا الجلد آخر الخلايا التي تموت ولنا عبرة وعظة في الملاحظات البسيطة التالية: عند موت الجهاز العصبي، كما في الإنسان الميت دماغياً يصبح

(1) ابو الفداء اسماعيل بن كثير (1430هـ - 2009م)- تفسير القرآن الكريم المجلد الثاني –دار كنوز للنشر والتوزيع – ص 1575.
(2) كيمبل بايولوجى - المرجع السابق.

الجسم مجرد تجمع من الخلايا حتى ولو لم تمت، ما هو هذا السر العجيب فى الجهاز العصبي الذي ينسق سائر وظائف الجسم ويعمل على تآزرها وترابطها، ما هو هذا السر الذي يوجد في هذا الجسد الترابي ويجعله يتحرك ويتنفس ويتغذى ويقوم بكل هذه الأنشطة وإذا خرج هذا السر الإلهي يبقى هذا الجسد هامداً. ما هو هذا السر الذي أذا وجد في هذا الجسد الترابي دافع عن نفسه بوسائل مختلفة وإذا خرج منها تحلل بفعل كائنات صغيرة دقيقه إلى عناصره الأولية المكونة له؟. أن هذا الجسد الترابي وِعاء لشيء غامض وهو روح الله التي أوجدها فيه حيث يقول الله عز وجل: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥]. ويقول عز وجلَ في سورة الواقعة: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ • وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ • وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ • فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ • تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]. هذا السر العجيب هو من أمر الله وهى حقيقة تؤكدها هذه المنهجية أن علم الإنسان محدود ونسبى لا يدرك حتى روحه التي بين جنبيه. فالحياة والموت آيات من آيات الله لمن أراد أن يتدبر ويتفكر وينظر ويبصر ثم يهتدي. ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ [الملك:2].الحياة والموت والأطوار المختلفة التي يتدرج فيها الكائن الحي هو ما يعرف في علم الحياة بدورة الحياة.

الوحدة في تركيب الكائنات الحية ونظرية النشوء والارتقاء:

إن المتأمل في تركيب الكائنات الحية نباتاتها وحيواناتها يلاحظ أنها تتكون من نفس العناصر الموجودة في قشرة الأرض، لكنها تتفاوت في نسبتها وكمياتها من كائن لأخر حسب ما تقتضيه حاجة هذا الكائن لهذه العناصر.هذه العناصر البسيطة تنتظم لتكون مركبات ضخمة معقدة لا مثيل لها خارج أجسام الكائنات الحية، تنتظم هذه المركبات لتكون منظومة فائقة الدقة والتنظيم مع قطرة ماء ويحاط بغشاء خلوي بديع التكوين ذي نفاذية اختيارية ليكون وحدة بناء الكائنات الحية جميعها وهى الخلية.

هذه الخلايا المؤلفة لأجسادنا وأجسام الكائنات الأخرى تختلف في شكلها ووظائفها على الرغم من أصلها الواحد وتكوينها المتشابه، كيف تسنى لهذه المجموعة من الخلايا بأن تتخصص وتتعاون لتؤدى وظائف متباينة لتدعيم وظيفة واحدة وهى حياة الكائن الحي، بعض الكائنات الأولية تتألف من خلية واحدة تقوم بجميع الوظائف الحيوية من تغذية وتنفس وإخراج وتكاثر. هذه الخلايا تنتظم في مجموعة أكبر لتؤلف وحدة وظيفية أكبر وهى النسيج مثل الأنسجة العضلية والدموية والعظمية، انتظام الأنسجة في وحدات أكبر لتكون الأعضاء والأعضاء تنتظم لتكون الأجهزة والأجهزة تنتظم لتكون الفرد. مجموعة الأفراد المتشابهة والتي يمكن أن تتناسل مع بعضها البعض وتنتج أفراد خصبة تكوِّن النوع، والأنواع تربطها علاقات غذائية وعلاقات أخرى مختلفة مع أنواع أخرى لتكون العشيرة – مجموعة العشائر مع المكونات غير الحية كل يتأثر بالآخر تتفاعل وتؤلف وحدة اكبر تسمى النظام البيئي[1].

وكوكب الأرض الذي نعيش عليه ما هو المجموعة من الأنظمة البيئة المتنوعة التي تكون في مجموعها ما يعرف بالغلاف الحيوي.كل هذه المجموعة متزنة ومتناسقة وهذا النظام البديع أودع الله فيه ميزة فريدة ألا وهى ترميم نفسه ولإصلاح الخلل الذي يحدث فيه حتى يعيد توازنه وانسجامه، كل الكائنات الحية متحدة في تركيبها من عناصر ترابية وماء، وكل الكائنات توجد بها هذه المكونات الأولية. يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]. وكل الكائنات تشترك في وجود الماء كأساس للحياة – حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، فجزيئات الحياة متماثلة وهذا التشابه في التركيب مبعثه التماثل في الوظيفة وهى الحياة. هذه الوحدة في التركيب دليل على القدرة الإلهية إذ أن الله يقول: ﴿وَخَلَقَ

(1) الأحياء (مدخل بيئى) – فتحى محمد احمد الربعه – الطيب احمد المصطفى حياتى – ط 3 – مؤسسة التربية للطباعة والنشر – ص10-13.

﴿كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. كلها تتحرك وفقاً لمشيئة الله إلى مصير واحد ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]. هذه العناصر التربية والماء تكون الأساس الأولى للمادة الحية وهو البرتوبلازم الذي يمثل المادة الحية في أي صورة من صور الحياة، فالماء أساس البروتوبلازم والبروتوبلازم أساس الحياة، التحليل الحيوي لهذا الهلام العجيب أوضح أنه يتكون من نفس العناصر الموجودة في التراب. كيف يمكن لهذه العناصر البسيطة أن تنتظم بمحض الصدفة وتكون هذه المنظومة الرائعة يقول الله سبحانه وتعالى فئ سورة العنكبوت الآية 20 ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ويقول عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. هذه دعوى صريحة للبحث عن كنه الحياة وإعمال العقل المتدبر والمتأمل في مخلوقات الله، منهجية قرآنية أساسها البحث والتقصي وإعمال العقل.

وعلى الرغم من أن التركيب الكيميائي للخلايا معلوم، فان العلم الحديث عجز عن تكون خلية واحدة، وكل النظريات عن سر الحياة وبداية الخلق التي أنتجها عقل الإنسان لم تصل إلى حل لغز بداية الخلق إن الله وحده هو القادر على ذلك حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. المتأمل في هذه الوحدة في التركيب وهذا التنظيم والتعقيد في أجسام الكائنات الحية لا يسعه إلا أن يسجد لله معظماً وموحداً. كيف يمكن لهذه العناصر البسيطة الترابية أن تتجمع وتتألف وتكون هذه الخلايا وكيف تيسر لكل مجموعة من الخلايا أن تتخصص وتنتج اعضاءاً بعينها، إذا أصاب أي من هذه الخلايا الجنينية عطب في مراحلها الأولى. يخرج الجنين مشوهاً، لماذا لم تصلح نفسها أذا كان ذلك يتم بفعل الطبيعة ؟ كل خلية في الطبقات الجرثومية الثلاثة التي تؤلف الجاسترولة " الكرة الجرثومية "لها وظائف محددة. إن نظرية النشوء والارتقاء للا مارك والتي تفترض أن بداية الحياة كانت نتيجة للتجمع العشوائي لهذه الجزئيات يدحضها هذا التخصص الدقيق في هذه الخلايا الجرثومية، كل خلية لها وظائف محددة

في تكوين الكائن الحي، أنها خلايا مشفرة ومبرمجة بشفرات ربانية تتحكم في سلوكها وانقسامها وتجمعها لتكوين الأعضاء والأجهزة[1].

نظرية دارون من الزاوية الموضوعية تعوذها الأدلة والبراهين العلمية التي تتمتع بها النظريات الأخرى وأن التجارب العلمية قد أماطت اللثام عن وجه النظرية وكذبتها حتى دارون نفسه كان يقول " أن ثم هياكل لحيوانات تعود إلى العصر الجليدي هي لم تختلف أشكالها عن اليوم ". وهذا يعتبر نقضاً للنظرية الذي يعتمد الانتخاب الطبيعي أو التطور المتسلسل من خلال حلقات كانت في ذلك العصر[2].

ويقول أيضا في تبيين مشكلات عوارض تتعثر بها النظرية " أن كانت الأنواع قد تدرجت متسلسلة من أنواع غيرها متحولة في خطى من النشوء فلم لا نرى في شعب النظام تلك الصور الانتقالية الوسطى التي تربط بين بعضها البعض. ويقول أيضاً هل من المستطاع كسب الغرائز وتهذيبها بالانتخاب الطبيعي؟ وماذا يقول في الغريزة العجيبة التي تسوق النحلة إلى بناء خليتها على صورة من الإتقان بزت بالسبق إليها مستكشفات عظماء الرياضيين وأهل الرأي منهم خاصة.

إن الانتخاب الطبيعي لا يعتبر دليلاً قوياً على النشوء والارتقاء لأنه غير الصالح ينقرض ويزول لكنه لا يخطط لنشوء صفات صالحة تكفل لمن يملكها من الأفراد البقاء دون غيره.

حتى أن دارون نفسه لم يكن ملحداً ينكر وجود الله حيث يقول دارون في عام 1897م في كتاب أرسله إلى فراديس " صاحب صورة من الشكوك " يقول: أننى في اشد أحوال التردد لم أكن قط ملحداً إذا كان معنى الإلحاد إنكار وجود الله. وفى كتاب كتبه إلى طالب هولندى فى ابريل 1873م قال فيه: "يبدو لي أن استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه شعورنا الداعي لم يكن وليد المصادفة وإنما هو اكبر سند لوجود الله". وفى عبارة أخرى يقول: "يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك في أن هذا العالم الفسيح

(1) امير عبدالعزيز (1406هـ 1986-م) – الانسان فى الاسلام – دار الفرقان – مؤسسة الرسالة – ط 2 – ص21.
(2) امير عبدالعزيز المرجع السابق – ص 21.

بما فيه من الآيات البالغة والأنفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لان المصادفة لأتخلق نظاماً ولا تبدع حكماً وذلك عندي دليل على وجود الله." أن أنصار دارون الذين روجوا لفكرة الإلحاد ونسبوها إلى أستاذهم، وكان لبنى صهيون دور كبير في استغلال هذه النظرية حتى يستخدموها في هدم الدين. حيث قالوا في احد بروتوكولات حكماء صهيون " أن دارون ليس يهودياً ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تحطيم الدين، ولقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لأرائهم "[1].

علم الوراثة أثبت خطأ نظرية النشوء والارتقاء حيث أثبت علم الوراثة أن الطفرات التي تورث هي التي تحدث للنوع وليس للفرد، فالطفرة التي تحدث للفرد تنحصر فيه فقط ولا تورث إلا إذا حدثت في الخلايا المكونة للأمشاج. أما البقاء للأصلح والانتخاب الطبيعي فهو سنة ومشيئة الله سبحانه وتعالى حيث أن الأفراد ذات الصفات الجيدة تستمر وتعمر الأرض لاستمرار الحياة أما الأنواع ذات الصفات الرديئة تنقرض ولا تسود. فالصراع في الطبيعة سنة كونية لبقاء الأفضل دائماً حتى في البشر ليحقق مبدأ الاستخلاف في الأرض. وفى هذا القرن وبعد اكتشاف الجزئي المسؤول عن نقل الصفات الوراثية DNA فسر كثير من الأشياء التي كانت غامضة فيما مضى، وأوضحت الدراسات الحديثة أن صفات الأنواع تحكمها شفرة وراثية لا توجد ألا في النوع ذاته وأن التطور التكيفى يكون في صفات النوع الواحد وليس في توليد أنواع جديدة منبثقة عن هذا النوع. وكل صفة تحكمها جينات تكون النمط الظاهري لهذه الصفة. هذه الجينات جزيئات عضوية نادرة التغيير في الطبيعة وإذا حدث فانه غالباً ما يكون قاتلاً أو مشوهاً وقد أثبتت الدراسات الحديثة في علم الوراثة أن التغيرات القابلة للتوريث لا يمكن أن تعزى لتغير في تسلسل القواعد النتروجينية فقط وهنالك نظام وراثي لاجيني ينتج من التفاعلات التي تحدث في الشبكات الجينية قد تتسبب في نشوء تنوعات جينية قابلة

(1) امير عبد العزيز – الانسان فى الاسلام – دار الفرقان – الطبعة الثانية عام 1406هـ - 1986م – ص 21.

للتوريث[1].

وأيضاً البيئة لها دور كبير في عملية التوريث نتيجة لبناء المواطن،Niche comstruction ويعرف بأنه النشاط المتكرر الذي تقوم به الكائنات الحية في بيئاتها وهذا يولد بمرور الزمن إرثاً من التأثيرات البيئية التي تعدل في نظام الانتخاب الطبيعي الذي يقع على الأجيال اللاحقة، وهنالك صفات لا تتحكم فيها الجينات بشكل مباشر مثل توريث السمات الثقافية وأيضا ما يعرف بالنشوء التعايشي.وقد أثبتت الدراسة الوراثية أن هنالك العديد من الصفات الكمية مثل الطول في البشر والذكاء ولون الجلد تتأثر بالبيئة وتؤثر فيها عدد من الجينات وأن هذه الجينات متماثلة في تأثيرها بحكم توزيعها في أفراد العشيرة. هنالك العديد من الصفات في النبات والحيوان مثل إنتاج الحليب والبيض واللحوم تتأثر بالجينات المتعددة وبالبيئة.

لذلك فإن النمط الظاهري للكائن ناتج من تفاعل الجينات والبيئة ويعرف التطور بأنه التغير الكيميائي الذي يحدث للنمط الجيني والذي ينتج عنه نمط ظاهري محدد. ويمكن قياس مقدار التنوع الجيني من خلال توازن البدائل الجينية ويمكن حساب ذلك من خلال عدد نسخ البدائل الجينية لنفس ألجين ومدى تواتر البديل الجيني قد يزداد أو يقل بالمقارنة مع البدائل الأخرى. التنوع يختفي تماماً عندما يصل الجين لمرحلة التثبيت هذا يعنى أن يتخفى الجين السلف بالكامل.

وقد تحدث الطفرات عن طريق التكاثر الجنسي أو بواسطة الهجرة بين التجمعات أو ما يعرف بانسياب الجينات وهذا يسبب تنوعاً جينياً إلا أن الأفراد التابعين لنفس النوع يتطابقون في الجنينيوم الخاص بهم ولكن حتى الاختلافات الضئيلة قد تؤدى إلى اختلافات جذرية في الأنماط الظاهرية[2].

وتحدث المتحدثون عن التطور الكيميائي ومن بعده التطور العضوي، فالمنهجية القرآنية لا تعترض على البحث والتقصي، لأن الحكمة هي ضالة المؤمن،

(1) أمير عبد العزيز: الإنسان في الإسلام، دار الفرقان، الطبعة الثانية، عام 1406ه 1986-م ص21.
(2) علم الأحياء مرجع سابق. ص 199-200.

أنى وجدها فهو أولى بها كما علمنا رسولنا الكريم ﷺ .فالإدعاء بالتجمع العشوائي لبناء الحمض الامينى الذي أساس بناء البروتين، كيف يمكن أن تتجمع مائتي ألف نوع من الجزئيات البروتينية لبناء أول خلية حية وتشعبت من هذه ملايين الأنواع بها عدد كبير من الأفراد، كيف يحدث ذلك عن طريق الصدفة المحضة. هذا الترابط الدقيق في الجزئيات البروتينية لا يمكن للصدفة أن تصنعه.

إن الادعاء بعشوائية التدرج في الخلق ترفضه الحقائق العلمية المستنبطة من علم الوراثة، لان كل نوع له عدد محدد من الجينات تحمل خصائصه الوراثية أي تغير في هذه الشفرة أما إلا ينتج بروتيناً أو ينتج بروتينات مغلوطة تؤدى إلى موت الخلية. وهذه الجينات لها القدرة على نسخ نفسها وتكرارها. هذا النسخ المتكرر لهذه الجينات يردها إلى أب وأحد وهو آدم عليه السلام. دقة بناء الخلية على الرقم من ضآلة حجمها " اقل من جزء من عشرة ملايين جزء من الملميتر المكعب" ينفى ذلك التجمع العشوائي،جدار كالسور العظيم تتخلله بوابات تفتح وتغلق بانتظام معجز، لها جيوش دفاعية وأخرى هجومية وثالثة احتياطية ولها اقوي أجهزة كهرومغناطيسية ولها مسئولون عن التموين وقدرة على تصنيع ألف نوع من أنواع البروتينات لها علاقات داخلية منضبطة وأخرى خارجية مع غيرها من الخلايا الموجودة حولها شفرة وراثية معجزة وغير ذلك من الصفات التي لا يتسع المقام لذكرها وهذا كله لا يمكن أن يكون للصدفة دور فيه[1].

خلق هذه الخلايا من العناصر الترابية الميتة هو أعظم دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى ودليل على إخراج الحي من الميت وان الله سبحانه وتعالى قادر على إعادة بعثها يوم القيامة: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ [الروم: ١٩]. تشير هذه الآية الكريمة إلى قدرة الله على خلق الإحياء من العناصر الأولية الموجودة في الأرض، تؤلف لتكون خلية أو جسماً عديد الخلايا به روح بعد نزع الروح منها تتحلل هذه العناصر المكونة

(1) Donogue،M.J.eds(2005)assembling the tree of life M oxojored uniusity pres. isB N O 19-34-5.5.

للجسد والخلية وتعود إلى الأرض. تتركب أجسام الكائنات الحية من جزئيات صغيرة تتجمع لتكون منظومة اكبر (عُضَى، خلية عضو، جهاز) لكن هذه الجزئيات لا تمثل وحدات أو قطع غيار يمكن فكها ووضعها دون اعتبار للجزء الذي نزعت منه. الأجزاء المعزولة أو الجزئيات لا تمثل خصائص الكل وذلك بسبب مابين هذه الجزئيات من تفاعل وتكامل، فهذه الجزئيات تتكامل في تركيبها ووظائفها لتكون الكل، فهنالك ظهور لصفات جديدة عند ارتباط الجزئيات مع بعضها البعض عند كل مستوى أعلى حتى تصل إلى مستوى الفرد. لذلك لا يمكن فهم خصائص الكائنات الحية بمجرد معرفة خصائص مكوناته الجزيئية، وان الكائنات الحية ليست مجرد تراكمات من المفردات، إذ أن وظيفة الكل تعتمد على التفاعل والتعاون المتبادل بين جميع المكونات.

هذا يعنى أن عند كل مستوى أعلى تتولد وتنبثق صفات جديدة ولا يمكن التنبوء بهذه الصفات بمجرد معرفة الأجزاء، وبذلك يمكن أن يقال أن هذه الصفات انبثقت. ولقد برزت فكرة الانبثاق لأول مرة عام 1923م في كتاب التطور الانبثاقي الذي إلفه بوبرمورجان، ولقد اعتنق الدارونيون هذه الفكرة، حيث يعتقدون بحدوث التطور عن طريق فقرات كبيرة غير متواصلة عن طريق الطفرات الجينية، لكن هذا الفهم تراجع بعد أن أتضح التطور في الكائنات الحية يتم لإفراد النوع الواحد وليس للفرد وليس هو الجين. وأصبح الآن إمكان استحداث أفراد ذات طراز مظهرية مختلفة عن باقي أفراد النوع عن طريق توليف الحمض النووي، وهذا يتم بسرعة وبشكل عرضي لكن النوع كوحدة تطورية كاملة لا تنشأ إلا بالتدرج البطيء.

قوانين الفيزياء والكيمياء تسرى على مستوى الجزئيات لكن خواص الكائنات الحية تختلف عن خواص الجمادات، هذه الخواص يتحكم فيها برنامج جيني محددة وحدوث أي تغيير في البرنامج الجيني يؤدى إلى أحداث مركبات مغلوطة أما أن تشوه الكائن الحي أو تقضى عليه. هذا البرنامج الجيني يحدد مظهر وخواص الكائن الحي بصورة تكاملية لا تظهر في الجمادات وهذه الخواص تتحكم

فيها جزئيات عملاقة هي:

الأحماض النووية والإنزيمات والهرمونونات، الحمض النووى DNA يتحكم في صنع البروتينات، تشكل الهرمونات والإنزيمات، وهذه البروتينات ذات قابلية محددة للتغيير. واثبت علم الوراثة الجزيئية أن التركيب الكيميائي لجزئي DNA له مقدرة فائقة على تخزين المعلومات الوراثية في نسق يسمى بالشفرة الوراثية، وان DNA له المقدرة على نسخ نفسه ومضاعفة المادة الوراثية وهذا بدوره يعمل على نقل الصفات الوراثية من خلية لأخرى وعبر الأجيال المتلاحقة.

كل ذلك يقودنا إلى أسئلة محيره لم يستطيع العلم حتى الآن أن يعطى لها إجابات كافية وشافية تقنع من يطرح مثل الأسئلة ومن هذه الأسئلة ! كيف تكون هذا النظام الجيني فائق الدقة ؟ وكيف تجمع في هذه الكائنات الحية ؟ كل نوع جيني في أي نوع من أنواع الكائنات الحية منضبط، ويكون الخصائص التي تكون النوع فقط ولا يكون خصائص أنواع أخرى، على الرغم من أن الوحدات البنائية للنظام الجيني على المستوى الجزيئي واحدة؟

كما أن هنالك خصائص عديدة في أجسام الكائنات الحية لا تتقيد بالقوانين الفيزيائية والكيميائية التي تحدث في الطبيعة، هذه الكائنات تطورت على مر الزمن ولها القدرة على الاستنساخ الذاتي والنمو والتمايز على ساس برنامج جيني، تتأثر بالمؤثرات في الوسط المحيط وتستجيب لهذه المؤثرات بصورة تساعد على أقامة الحياة، تتكيف مع عوامل البيئة المختلفة بصورة تمكن الكائن من تسيير جميع وظائفه الحيوية بشكل فعال واقتصادي.

نحن لا نشكك في التطور الهائل في مجال العلوم الفيزيائية والكيميائية وأنها ساعدت على تفسير كثير من التساؤلات، لكن هذا التطور كلما أجاب عن تساؤل محدد ظهرت أسئلة أخرى تقليدية وأن الضالة التي نقصدها مازالت عصيه، وأننا لم نصل إلى الحقيقة التي ننشدها وأن هذه الضالة هي الواقع الذي يكابده الإنسان في سعيه ليجيب عن عدة أسئلة، كيف بدأ الخلق ؟ ولماذا خلقنا؟ وكيف

نشأ هذا الكون كله ؟ وهل نهايتنا بالموت هي نهاية أبدية؟ أم هنالك نشأة أخرى بعد الموت؟.

كل هذه الأسئلة يطرحها كل من له فطرة سليمة، وغالباً ما تقود هذه الأسئلة أصحاب العقول النيرة إلى نهائيات إيمانية، وهذه التساؤلات التي يثيرها العقل المتفكر والمتدبر تعتبر ناتج ايجابي لسعى الإنسان الذي ينشده القرآن الكريم.

ولكننا في تدبرنا للآيات القرآنية التي ساقها عن مخلوقات الله الحية نجد كثيراً من هذه التساؤلات التي تدعو العقل إلى التدبر والتفكر والتساؤل وكثيراً ما نجد آيات تبدأ بالسؤال التقريري " الم ترى" " أو لم ينظروا" " أفلا ينظرون" " افرايتم" "انظروا"ويعقب هذا السؤال التوجيهي طرح لموضوع يتعلق بقضية الخلق أو بسنة من سنن الكون أو ظاهرة في الطبيعة[1].

(1) على الطاهر شرف الدين ك بحث بعنوان آيات الله القرآنية وآياته تعالى الكونية، المؤتمر العالمى الثانى، التكامل المعرفى بين علوم الوحى وعلوم الكون، محرم 1420هـ يناير 2009م، قاعة الصداقة الخرطوم.

المبحث الثالث

خلق الإنسان في أحسن تقويم

كل الدراسات الجيولوجية والحفريات تدلل على أن الأرض كانت مسكونة بكائنات حيوانات ونباتات قبل وجود الإنسان عليها والسجل الجيولوجي للأرض أوضح أن هنالك تعاقب لأجيال من الكائنات الحية على الأرض." فمنذ العصر الكربوني من حوالي 300 مليون سنة وجدت برمائيات عملاقة وزواحف مدرعة والحيوانات الحديثة لم توجد إلا قبل 60 مليون سنة حيث ظهرت القطط والخيول والغزلان والكلاب[1].

وظهور الإنسان في حقب متأخرة تالي لهذه الحيوانات والنباتات وهذا يجئ مصدق لقول الله: ﴿**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾ [طه: 123]، وهبوط الإنسان يعني نزوله للأرض عندما نزل إليها وجدها معمورة بكائنات أخرى، حيث أن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وهيأها لخليفته قبل نزوله إليها. كما أعدها لكل الكائنات الحية وخلق فيها مواردها المختلفة التي تشكل أساس الحياة للإنسان ولغيره من الكائنات الحية وأن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بقدر أي كمي وزماني وأن الله سبحانه وتعالى حدد في الأرض أقواتها، قال تعالى: ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾ [فصلت: 10]، حيث أن الله سبحانه وتعالى حدد كمياتها بصورة متوازنة تفي بحاجات خلقه وأن كل الكينونات مخلوقه بهذا التقدير الكمي والزماني حيث يقول المولى عز وجل: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾.

ومن الثابت عقلياً عدم تطور الإنسان من أسلاف دنيا والدليل على ذلك عدم وجود طرز انتقالية بين الإنسان هذه المخلوقات في درجات مختلفة من التطور وأن الحفريات التي عملت توضح وجود هذه الكائنات بهذه الصورة ولا توجد كائنات وسطية اللهم إلا مثال واحد هو طائر الأوكيوبتركس وهو طائر حفري بأسنان

(1) عبد المنعم عبد الرحمن خضر، الإنسان والكون بين القرآن والعلم، 1402ه/1982م،عالم المعرفة،المملكة العربية السعودية،ص:28

وريش اتخذه العلماء التطور على أن الطيور تطورت من الزواحف واستدلوا بوجود الأسنان والحراشف على أرجل الطيور[1].

وعدم ظهور طرز انتقالية في الحقب الزمانية القريبة كل ذلك يوضح عدم وجود الأدلة المقنعة على نظرية التطور والارتقاء أن أصل الحياة كلها كان من خلايا أولية تطورت وارتقت لتصل إلى هذا الكم المعقد من الكائنات الحية والأنواع العديدة منها.

نحن في هذا المقام لا ننكر حدوث التطور النوعي للأنواع عبر حقب الزمن المختلفة فهذا التطور النوعي للكائنات الحية بجعلها أكثر قدرة وملائمة على المنافسة في البيئة بشكل أفضل. لكن الاعتراض على تطور أنواع من أنواع أخرى لأن عملية التطور مرتبطة بنظام جيني دقيق ذو قابلية محدودة على التغير وإذا تغير فانه يحدث صفات جديدة في نفس النوع ولا يولد أو تنبثق عنه أنواع جديدة، فالتجارب التي تجري لإحداث طفرات اصطناعية لا تولد أنواعاً جديدة وإنما ينتج عنها صفات في النوع ذاته.

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان خُلق في أحسن تقويم ومكانته أفضل من جميع الكائنات الأخرى جميعها. فهو كائن مزود بملكات قل أن توجد جميعها في كائن آخر فهو يتميز بالعقل المفكر، المبتدع المتأمل، البصير القادر على تكييف البيئة التي توجد حوله لتناسب حياته وبقية الحيوانات تكيف نفسها لتلاءم البيئة، ويتذوق الجمال ويعبر عن نفسه بالضحك والبكاء والسرور ويميل إلى خلق علاقات متوازنة مع غيره من المخلوقات يقول المولى عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64].

وخلق الإنسان يختلف عن خلق بقية الكائنات الأخرى بوجود قوة العقل، تركيبه الخارجي فيه جمال وتناسق وتكامل لا يوجد في بقية المخلوقات الأخرى

(1) كيمبل بايولوجى – مرجع سابق.

يقول المولى عز وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ • الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ • فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6-8].

تكامل روحي ومادي، معتدل القامة جميل المنظر، تناسق في الأعضاء تلاؤم بين الأعضاء والوظائف على درجة عالية من الإتقان.

مازالت الضالة التي نحن نبحث عنها عصية ونحن مأمورون بالسير في الأرض لنبحث عن بداية الخلق وكيف نشأ الكون؟ وهذا وارد بنص القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]. لم تحدد كيفية أو ماهية السير بل ترك الأمر مفتوحاً ليشمل كل الطرق (الحفريات للبحث، عن الكائنات القديمة والمستحثات، التي تشير إلى بداية الخلق، الملاحظة للعقول المهيأة، التجربة البناءة الاستقرار والاستدلال).

نخلص من ذلك إلى أن الإنسان لم يمر بمراحل تطوريه عبر أنواع سلف وإنما وجد بهذه الهيئة. خُلق الإنسان الأول من تراب. كيف تم تكوينه خلقه لم يفصح القرآن الكريم بذلك، ولا توجد أدلة علمية مقنعة حتى الآن توضح كيف نشأ هذا الإنسان ثم جعل الله ذرية آدم تتعاقب بالتكاثر الجنسي لحفظ النوع من الانقراض حتى يعمر الأرض ويحقق مفهوم الاستخلاف يقول المولى عز وجلّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11]. ويقول أيضاً: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ • ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: 7-9].

فالإنسان ذو تكوين مادي وروحي مزدوج مميز عن غيره من الكائنات لأنه حمل أمانة التكليف دون غيره من الكائنات، حباه بالعقل وسخر له ما في البيئة ليحقق بها أغراضه وتساعده على وظيفته التي حمل بها سخر له ما في الكون وذلك

حتى يستفيد منه.

فالإنسان لم يتطور من غيره من الأنواع، لكنه يمكن أن ينحدر إلى غيره من الحيوانات إن هو عطل نعمة الله عليه وهو العقل وهذا ثابت بنص القرآن الكريم حيث يقول المولى عز وجلّ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]، فكمال خلق الإنسان يتجلى في العديد من أعضائه ولنأخذ مثالاً واحداً وهو يد الإنسان، تقول مجلة العلوم الانجليزية (إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة وإنه من الصعب جداً بل ومن المستحيل أن تبتكر آله تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف[1].

وجود الإبهام بهذه الكيفية الفريدة مكنت يده من استخدامها في القبض والمسك وتسخيرها لابتداع آلات في الكتابة بشكل فريد لا يقدر عليها كائن آخر فبيده ينحت ويرسم ويصمم ويعزف الموسيقى، كل النظريات التي وضعت لتفسير نشأة الخلق والكون ويعتبرها الباحث جزء من هذا السير وإن كانت على درجات متفاوتة في القبول أو الرفض وهي تمثل لبنات في الإرث المعرفي للإنسان، والباحث لا يقف منها موقف القبول أو الرفض وإنما موقف الناقد المتفحص فهي تثير تساؤلات وملاحظات لم تجد الحل إلى الآن لكنها تدخل في باب السير في الأرض.

الحقائق القرآنية مسلمات لمن يؤمن ويوقن بهذا الدين، لكنها تحتاج إلى البرهان الفعلي والتجريبي لمن لا يدين بدين الإسلام، وفي هذا الصدد نقول يجب إلا نجري وراء المكتشفات العلمية لنؤكد وجودها في القرآن الكريم. بل يجب أن تنحو منحى آخر وهو إعداد مراكز بحوث علميه قرآنية ونوفر لها الإمكانات المادية والبشرية ونجري البحث في هذه المسلمات القرآنية حتى نخرج منها بحقائق مبنية على التجربة والملاحظة وما أشار إليه القرآن هو نتائج ومسلمات مثال على ذلك أشار القرآن أن عسل النحل فيه شفاء، يجب أن تكون دراستنا مختصة في تحليله

(1) عبد العليم عبد الرحمن خضر، مرجع سابق،ص:98.

كمياً ونوعياً حتى تحدد أجزاءه الشافية ورسولنا الكريم أمر الرجل المبطون أن يشرب من أبوال الإبل وألبانها فيشفى يجب أن يكون سعينا في اكتشاف مسببات الشفاء فيها.

والقرآن الكريم أشار إلى أن الإنسان خلق من طين وفي أحسن تقويم فلنبحث ولنجرب على هذه المسلمة لأننا لو وقفنا نكون قد عطلنا مبدأ السير في الأرض لاكتشاف بداية الخلق.

وهنالك من المسلمين من يؤمن بنظرية التدرج في خلق الإنسان حيث يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن الجزء 13 (جزء 18:ص233) المنشور بواسطة دار الفكر العربي (أن آدم لم يخلق خلقاً مباشراً من التراب وإنما كان خلقه في سلسلة من التطور وأنه إذا كان الطين مبدأ الخلق فإنه قد ينتقل في هذا الطين من عالم إلى عالم ومن خلق إلى خلق حتى كان الإنسان آخر خلقة في سلسلة هذا التطور تظهر فيها الكائن العاقل وهو آدم أو الإنسان ويقول في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٢٩]، إشارة إلى آدم لم يظهر من الطين مباشرة وإنما ظل دهوراً طويلة في بوتقة الزمن حتى أستوي ونضج فالفاء في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**﴾ تفيد التعقيب ولكنه تعقيب يأخذ من عمر الزمن ملايين السنين ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الحج: ٤٧][1].

إنه نوع من الاستنتاج المنطقي لكنه يحتاج في الجانب العلمي إلى الدليل والبرهان التجريبي ونقبله ولا نرفضه لكن يكون لنا خطوة في مجال بحثنا في مراكزنا الإسلامية فإننا لا نسلم به كحقيقة فالحقيقة غائبة ما زالت ولكنه يعتبر خطوة مقبولة في مجال العلوم وفرضية متسقة مع الفرضيات الموجودة تحتاج لمزيد من البحث والتدعيم التجريبي.

ونفس الفكرة أشار إليها السيد قطب في تفسيره حيث يقول: ((إن أصل

(1) محيو.

الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ومن عناصره الرئيسة تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها (كلمة السلالة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

كلام الشيخ الجليل مقبول عقلياً ومنطقياً حسب فهمنا القاصر ولا نرفضه وهو اجتهاد يثاب عليه ولكننا لا نأخذه حقيقة مسلمة وإنما نعتبرها خطوة في المسار الصحيح في الطريقة العلمية التي تبدأ بالملاحظات وتدعيمها بعد ذلك الأدلة والبراهين والتجربة ؟ ولكنه اجتهاد في السير الأرض الذي أمر الله به فكل العلوم بدأت بملاحظات صغيرة وتراكمت إلى أن كونت لنا أرثاً معرفياً ضخماً.

وحتى نظرية دارون في النشوء والارتقاء يجب ألا نقف منها موقف العداء السافر وإنما يجب أن نتناولها بالنقد والتحليل وتوضيح جوانب القصور فيها مستندين في ذلك بما رسخ من العلم الحديث من علوم في مجال الحياة وعلم الأحياء الجزيئية وكل ما من شأنه أن ينتقد أو يدعم كل النظريات والفرضيات المطروحة للبحث.

القرآن الكريم يحث على طلب العلم التجريبي والاستدلال والاستقراء وهو يتفق في منهجيته مع أسلوب ومنهج العلم الحديث في حل المشكلات والدليل قول المولى عز وجل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20]، واستخدام القرآن الكريم لمخلوقات الله الحية لم تكن مقصودة لذاتها وإنما وسيلة لغاية كبيرة وهي تنبيه الفطرة السليمة التي جبل الله عليها الخلق فهي دعوة لإعمال العلم والعقل من أجل الإيمان بالله عز وجل والقرآن الكريم في تناوله للكائنات الحية يدعو إلى التفكر وإعمال الحس والتجربة كما يستخدم منهجية فريدة في الوصول إلى ذلك يعرض فيها هذه المخلوقات بصورة تدعو إلى الانتباه واليقظة لكشف السنن والقوانين التي

يسير عليها الكون قاطبة وأن تستخدم هذه السنن والقوانين في تحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض.

إن الدين الإسلامي ينظر للوجود والحياة والإنسان نظرة متكاملة كل من الكون والإنسان له علاقة بالآخر، فهما متكاملان، الإنسان هو خليفة الله في الأرض والكون كتاب الله المفتوح للنظر والتأمل والتدبر وهو مسخر للإنسان لتحقيق الخلافة في الأرض فيحاول القرآن الكريم في مخاطبته للإنسان أن يجيب على كل التساؤلات المحيرة حول الغاية من وجوده وخلقه وهي نظرة تختلف عن ما يمكن أن يصدر من استنتاجات البشر وتصوراتهم. وهو بالتالي الحاكم فيه بما يشاء فله وحده السلطان القاهر على ما خلق إيجاداً واعترافاً وإبقاء وأحياءاً وأماته.

الخاتمة

أهم النتائج:

- الإعداد الطويل للإنسان منذ ولادته إلى بلوغه يدل على عظم المسؤولية المكلف بها
- عقل الإنسان هو هبة الله للإنسان يوظفه في خلق منظومات اجتماعية وأخلاقية تعينه في الاستخلاف في الأرض.
- للإنسان حس جمالي يميزه عن غيره من الكائنات الحية يتذوق به ما يشاهده من كتاب الله المفتوح.
- الإنسان ذو طبيعة مزدوجة مادية وروحية يحتاج لتغذية الجانبين الروحي والمادي حتى يعيش في سكون وطمأنينة.
- استنتاجات العلماء عن خلق الإنسان لا يعتبر مسلمات وإنما خطوات في المسار الصحيح قابلة للإثبات والتكذيب.

أهم التوصيات:

- إعداد مراكز بحوث قرآنية تبحث في الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم، مع توفير الإمكانات المادية والبشرية حتى يتم الخروج بنتائج علمية مبنية على التجربة والاستنتاج العلمي الصحيح حتى يكون لنا السبق في هذا الميدان.

أهم المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- أبو الفداء إسماعيل بن كثير (1430هـ – 2009م) – تفسير القرآن الكريم المجلد الثاني –دار كنوز للنشر والتوزيع.

3- سيد قطب – فى ظلال القرآن الكريم – دار الشروق.

4- زغلول النجار – تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم – مكتب الشروق الدولية – 1431هـ – 2000م.

5- آرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيه، ترجمة عفيفى محمد عفيفى،مطابع السياسة الكويت، 1422هـ2002–م

6- عبد المنعم عبد الرحمن خضر، الإنسان والكون بين القرآن والعلم، 1402هـ/1982م،عالم المعرفة،المملكة العربية السعودية

7- على الطاهر شرف الدين ك بحث بعنوان آيات الله القرآنية وآياته تعالى الكونية، المؤتمر العالمي الثاني، التكامل المعرفي بين علوم الوحى وعلوم الكون، محرم 1420هـ يناير 2009م، قاعة الصداقة الخرطوم.

8- أمير عبد العزيز: الإنسان في الإسلام، دار الفرقان، الطبعة الثانية، عام 1406هـ 1986.

9- فتحي محمد احمد الربعه،الأحياء (مدخل بيئي)– الطيب احمد المصطفى حياتي – ط 3 – مؤسسة التربية للطباعة والنشر.

10- كيمبل بايولوجى (1413هـ 1993–م) – تعريف شاكر محمد حماد – وعادل إبراهيم الخراز – دار النشر الرياض.

11- هناء نزار انشاصى: (2007م – 1428هـ)– الاستنساخ بين الحقيقة والخيال – دار الفكر.

12- Donogue, M. J. eds (2005) assembling the tree of life jored uniusity pres. is B N O 1934-5.5- M oxo.